

وسوريا والعراق، في ختام زيارتهم القانونية إلى الفاتيكان، وتسمى «بزيارة الأعتاب الرسولية» التي على كل أسقف القيام بها كل ٥ سنوات.. ولهذه الزيارة، بتعبير البابا يوحنا بولس الثاني، ثلاثة معاني: أولها زيارة قبر الرسولين بطرس وبولس. ثم الالتقاء بخليفة مار بطرس (البابا) بحيث تتعمق الوحدة والتضامن من خلال شركة الأساقفة. وأخيرا الالتقاء بمختلف الدوائر الرسمية في الفاتيكان ليقف الأساقفة على ما يجري فيها وليستفيدوا من تخصصاتها.

كان خطاب البابا شاملا وجوبا على التقارير الخاصة التي قدمها كل أسقف مشارك، حول كنيسته في مواقع قوتها وضعفها والتحديات التي تواجهها. وقد أجمل هذه التحديات البطريك ميشيل صباح، وهو رئيس مجلس الأساقفة العاملين في الوطن العربي. فقال أمام البابا، إن التحديات كثيرة وأولها عدم الأمان والأمن السياسيين والأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تعاني منها البلدان العربية، وينجم عن هذين التحديين دفع السكان إلى الهجرة، وهي تؤثر على كل المواطنين، لكنّها تؤثر بشكل خاص على المسيحيين الذي يشكلون أقلية عدوية في بلدانهم، رغم التزامهم بقضايا شعوبهم ومجتمعاتهم. وأضاف البطريك أن هنالك تحديا مشتركا يواجه المسلمين والمسيحيين على السواء، وهو خطر التطرف الديني الذي يستثيره من جهة فهم مخطئ للدين بتحويله إلى عامل مقاومة سياسية وبإحلال الذات والهوية السياسية محل الله سبحانه وتعالى، ويستثيره من جهة أخرى المظالم الموجودة في العالم.

بدوره، تحدّث البابا إلى الأساقفة، ومن خلالهم إلى كل مسيحي عربي. وسلط الضوء على الوجود المسيحي في الوطن العربي وعلى قضية الهجرة، لكنّه أبدى استعدادا كبيرا للتعاون مع الكنائس المحلية، لتنمية مشاريع اجتماعية واقتصادية تشجع المسيحيين الذين اختاروا البقاء في بلدانهم الأصلية. ووصف البابا حضور المسيحيين بأنه مشرف، تبعا للمؤسسات الروحية والتربوية والصحية التي يديرونها، وهي محط

إعجاب المواطنين كافة. وقال ان المسيحيين العرب هم «صانعو سلام وعدالة». ومن جهة أخرى، دعا إلى تعزيز الحوار الإسلامي المسيحي في البلدان العربية، لأن ذلك يخلق فهما متبادلا بين الجميع، وبالتالي يعزّز المساواة في الحقوق والواجبات بين السكان كافة.

أمّا النقطة الساخنة التي تعرّض لها البابا في كلامه، والتي ركزت عليها وسائل الإعلام، فهي الحرية الدينية في الوطن العربي. وهي الموضوع الذي تركّز عليه الكنيسة من باب حقوق الإنسان الأساسية. وقد نصّت عليها شرعة حقوق الإنسان التي مرّ عليها ستون عاما. لكنّها ما زالت غير مكتملة في البلدان العربية. فلماذا ركز عليها البابا ودعا إلى وجودها لكل فرد؟

جاء كلام البابا جوابا على تقارير الأساقفة. وبدورهم ذكروا على لسان البطريك صباح أن «الداستير العربية تساوي بين المواطنين من غير تفرقة من حيث الدين. ولنا الحرية الدينية لنعيش إيماننا وبنبي كنائسنا ومدارسنا». إلا أن الأمر نسبي بالطبع، وقد يختلف من بلد إلى آخر. ومن جهة أخرى، فما ركز عليه البابا ليس حرية العبادة في المجتمعات العربية، وإنما الحرية الدينية، وهي حق أساسي للإنسان، كل إنسان. وهناك فرق بين حرية العبادة والحرية الدينية. الأولى أن يقوم المواطنون بإجراء شعائر عبادتهم وتقواهم بسهولة ويسر. وهذا حاصل في البلدان التي فيها حضور مسيحي مميّز. رغم أن بعض الظروف السياسية، وبخاصة في العراق اليوم، قد تمنع الوصول إلى أماكن العبادة، نظرا للتفجيرات التي تمارسها فئات متطرفة. لكنّ الحرية الدينية التي تحدّث عنها البابا هي شأن آخر، فقد قال: «أتطلع بشدّة لأن تصبح الحريات الدينية الحقيقية واقعا في كل مكان وان حق أي شخص في ممارسة دينه بحرية أو تغييره ينبغي عدم عرقلته». هذه هي الحرية الدينية الصحيحة، وهي ما يطلق عليه اسم «حرية الضمير». وهي غير موجودة طبعا في أي بلد عربي. وان وجدت، فهي بمستطاع فئة دون الأخرى. لكننا لن نستطيع الكلام عن حقوق الإنسان في أي بقعة من الدنيا، مع استثناء هذا الحق الأساسي، أي الحرية